على قبر ابى العلاء

سيدي حكيم المعرة بل حكيم العرب قاطبةً .

ألا ليأذن لي السادة المحترمون الذين حملهم الأعجاب بك والاكبار لك على أن يحجوا إلى قبرك في هذا الموكب الحافل بمناسبة مرور الف سنة على ميلادك ، أن أفرغ لمناجاتك ، وأتجرد لمخاطبتك ، وما أظن بأن الدقائق القليلة التي يسمح لي بها حجاج قبرك الكرام والتي أستطيع فيها أن أناجيك وأن أخاطبك تكفي للاعراب عما توحيه إلي في هذه الساعة ذكراك الخالدة ويثيره هذا المشهد الرائع على قبرك في نفسي من شتى الخواطر والافكار وضروب الأحاسيس والانفعالات .

سيدي أبا العلاء

إن العراق الذي تجشمت اليه الأخطار وركبت له متون الأهوال وقضيت في ربوعه زمناً غير قليل وعاشرت علماءه وأدباءه وشعراءه معاشرة طويلة فعرفتهم وعرفوك وأحبتهم وأحبوك يرفع لك على لسان هذا العاجز خالص ولائه وصادق إعجابه راجياً جميل صفحك إن كان قد وقع له معك في اثناء زيارتك له ما لا يرضيك عنه أو ما لا يرضيه هو عن نفسه شاكراً كريم إحساسك ورقيق شعورك نحوه في قولك مودعاً أبناء عاصمته :

أودعكم يا أهل بغداد والحشا ... على زفرات ما ينين عن اللذع
وكان مرادي أن أموت لديكم ... حميداً فما الفيت ذلك في الوسع

وقولك متشوقاً إلى أصدقائك الأوفياء فيه واليه :

سلام هو الاسلام زار بلادكم ... ففاض على السني والمتشيع
كشمس الضحى أولاه في النور عندكم ... وأخراه نار في فؤادي واضلعي

يفوح إذا ما الريح هب نسيمها شآمية كالعنبر المتضوع
نعم حبذا قيظ العراق وإن غدا يؤجج ناراً في مقيل ومضجع
فكم حله من أصمع القلب آيس يطول ابن أوس فضله وابن أصمعي
أحن لذكراه وأحفظ غيبه وانهض فعل الناسك المتخشع

إنه لفخر للعراق يا سيدي الحكيم ما بعده فخر أن يترك هذا الانطباع الحميد في نفسك وأن يحتل هذه المكانة الرفيعة من قلبك وأن يظفر بهذا النصيب من ثنائك وتقريظك.

ايها الفيلسوف الكبير

إن الشرق العربي الذي أقمت نفسك مصباحاً له تنير أمامه السبيل وأنت تحترق فجهل فضلك وأنكر فلسفتك واتهمك في دينك وطاردك في أيام حياتك وبعد مماتك ما وجد إلى مطاردتك سبيلاً، قد أدرك اليوم خطأه وتبين إسرافه على نفسه فاستعاض عن خطأه بصوابه وعن ضلالته بهداه وعن غيه برشده وهو اليوم يؤمن بمبادئك ويصدق بتعاليمك ويشعر من أعماق نفسه أنك رسول أمين من رسل المحبة والحنان والرحمة. على أنه إن آمن بمبادئك وصدق بتعاليمك فانما يؤمن بما فيه خيره ويصدق بما فيه صلاحه وفلاحه. وقد يدهشك يا سيدي الحكيم أنه لم يصحح رأيه فيك إلا بعد مرور الف سنة وقد تقلقك منه هذه الأناة في تصحيح الاخطاء فأطمئنك بأن ثقافته قد تقدمت وأن معارفه قد اتسعت وإنه سيقضي من الآن فصاعداً في تصحيح الخطأ الواحد أقل من الف سنة.

ايها الفيلسوف الكبير

إن القرون العديدة التي مرت مند وفاتك لم تزد مبادئك إلا سمواً وتعاليمك إلا قوة ورسوخاً، «فديكارت» لم يزد على أن كرر للعالم مادعوته إليه مائة مرة من تقديس العقل وتمجيده وتحكيمه في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الدنيا والدين على السواء، وكلمته الشهيرة (أنا أفكر، إذن أنا موجود) ليست إلا تكراراً غير مقصود لكثير من أمثال قولك:

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً وارحل عنها ما إمامي سوى عقلي

«وروسو» لم يزد في دعوته الى الاصلاح السياسي على أن أيد آراءك

وكرر أقوالك ودعا الناس إلى اعتناق تعاليمك ، إذ كل ما دعا اليه في هذا الباب أو جله هو أن يتمتع الناس جميعاً بحرية الفكر والقول والعمل وأن يكونوا متساوين في الحقوق والواجبات وأن يكون الشعب مصدر السلطات جميعاً اليه يرجع الحكام فيما يدبرون من شؤونه ويصرفون من أموره. لأمره يخضعون وبرأيه يهتدون ، وقد سبقته إلى تقرير هذا كله في لزوم ما لا يلزم . فما أعرف كلمة أبلغ في انكار التحكم في الحريات من قولك :

إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين اطلت همسي

ولا اعرف كلمة أبلغ في تقرير المساواة من قولك :

لا يفخرن الهاشمي على امريء من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده إلا كقنبر

ولا أعرف كلمة أبلغ في تحديد علاقة الحاكمين بالمحكومين من بيتك الجاري على كل شفة ولسان ألا وهو :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وسبقك الى ما جاء به ديكارت ورسو يعني انك تمثل بعبقريتك التي لا حد لها مدرستين هما من اعظم المدارس الادبية في العالم ان لم نقل أعظمها ، هاتان المدرستان هما اللتان تدعيان « الاتباعية والابتداعية » وأخيراً أفعل تولستوي في تنازله عن املاكه ومشاركته العمال والفلاحين في حياتهم الخشنة الا ما فعلته في تنازلك عن مال المعرة عندما آل أمرها اليك وانفاقه على الفقراء وذوي الحاجة من أبنائها وانت تقول :

سولت لي نفسي أموراً وهيبا ت لقد خاب ذلك التسويل
ويقول الغواة خولك الله كذبتم لغيري التخويل
ان حباك القدير كالنيل تبراً فليفضه العطاء والتنويل
لا تعول على أختزان فما للبدر الصفر أثر ميت عويل

أما رأيك في الناس فلا يمر عصر أو جيل — أستغفر الله — بل لا يمر يوم حتى يقوم البرهان تلو البرهان على انه صحيح كل الصحة مصيب كل الاصابة فليس من شك في أنهم اليوم كما كانوا على عهدك وكما كانوا منذ

وجدوا على ظهر هذه البسيطة أهل لما سددت اليهم في سقط الزند ولزوم مالا يلزم من سهام نقدك الجارح خلقاء بما وصفتهم به من حرص على المال وتهافت على الجاه وتكالب على المطامع والشهوات . لم يعصمهم علمهم من رذيلة ولم يطبعهم على فضيلة ، قد كبرت عقولهم وصغرت نفوسهم واتسعت مداركهم وضاقت افئدتهم ، وحسنت مظاهرهم وساءت سرائرهم ، وقد جرفتهم مطامعهم الأشعبية فزجت بهم في حرب قضت على جانب كبير من عمران مجتمعهم وذهبت بحياة الملايين من رجالهم وسببت الثكل واليتم لملايين كثيرة من نسائهم واطفالهم وحرمت المجتمع ملايين عديدة من الأيدي العاملة وانخنت جسم المدنية بجروح قد لايشفى منها الا بعد عشرات الأعوام . وقد كانوا على عهدك يكتفون بالنشابة سلاحاً وبالحربة اداة فتك وبطش ، اما اليوم فهم يترامون بالقذائف المحرقة في اعماق البحار ويتراشقون بها في جوف السحاب ، ماذا أقول لك ، بل أنهم يقصفون المدن الآمنة ويضربون النساء والشيوخ والأطفال بقنابل زنة الواحده منها اربعة اطنان حيناً وستة اطنان حيناً آخر ، اي أن قنبلة واحدة من هذه القنابل لو سقطت على المعرة لاسمح الله لتركتها أثراً بعد عين .

وما احدثك به عن الناس من بعدك احدثك به عن الحياة وهي على كل حال حياتهم وثمرة جهادهم ، وتفكيرهم ونتاج أخلاقهم وعاداتهم واعمالهم واحوالهم فما عسى أن تكون بعد ذلك ومع كل ذلك ورغم كل ذلك يمكنني أن اروي لك خبراً مفرحاً جداً ، خبرا يملأ قلبك سروراً ونفسك حبوراً ، هذا الخبر ياسيدي الحكيم هو خبر اجتماع مندوبي الأمم العربية في الأسكندرية للتشاور في اعاده تنظيم الوحدة العربية ، وانه لمن بدائع الصدف ومحاسن الاتفاق ان تفتتح هذه المفاوضات في نفس الوقت الذي يحتفل فيه العرب بمرور الف سنة على ميلادك كانهم بذلك يقيمون البراهين المختلفة على حيويتهم وفاعليتهم في وقت واحد . أجل ياسيدي الحكيم ان العرب الذين ساءك تواكلهم وتخاذلهم وانحلال ملكهم وسطوتهم فندبت سوء حظهم في العراق والشام لملاقتك المباشرة بهذين القطرين بقولك :

ان العراق وان الشام مذ زمن صفران مافيهما للملك سلطان

قد شعروا اليوم بدم الحياة يجري في عروقهم مرة اخرى فانتفضوا من مراقد

الخمول ونهضوا من كبوتهم البعيدة المدى وراحوا يعملون بكل ماأوتو من قوة على لم شعثهم ورأب صدعهم واصلاح بلادهم وتنظيم شؤون مجتمعهم وهم مقتنعون في قرارة نفوسهم بأن توحيد بلادهم بشكل من الأشكال هو الطريق الوحيد لتحقيق كل هذه الأغراض وبلوغ كل تلك الغايات لذلك يجتمع مندوبوهم ورؤساء حكوماتهم اليوم في ارض الكنانة ليعملوا على تحقيق هذه الرغبة الشاملة التي مضت عليها الأعوام الكثيرة دون أن تخرج من حيز الأماني والأحلام . هذاهو احسن خبر يمكنني ان ارويه لك عن هذه الدنيا الفانية ، فان سرك واطمأنت اليه نفسك وهذا مالا اشك فيه فسل ربك ان يشد ازر القائمين بالدعوة الى الوحدة العربية وان يثبت اقدامهم ويكلل جهودهم بالتوفيق الكامل والنجاح التام ، فان في ذلك فوائد لاتحصى ومنافع لاتحصر لعشرات الملايين ممن يتكلمون لغة اللزوميات ورسالة الغفران .

الا لتعش ذكراك ايها الفيلسوف الأكبر ، ولتعش الوحدة العربية .

مهدي البصير